معايير الرد النحوي
في تفسير الميزان للسيد الطبا طبائي

الدكتور حبيب مشغول حسن

يكاد يجمع دارسو العربية على أن للتركيب النحوي وظيفة دلالية بحيث يتغير المعنى تبعاً لتغيير التركيب ، فأية حركة فيه من شأنها أن تؤدي إلى تغاير في المعنى وهذه السمة بارزة في اللغة العربية ، ولهذا الأمر نجد الباحثين في تحليل النصوص يرصدون طبيعة التركيب ليصلوا إلى المعنى الذي قصده صاحب النص ، وإذا كان هذا الأمر يعم جميع الباحثين في النصوص اللغوية ، فإنه يأخذ طابعه المتميز عند الباحثين في مجال التفسير ، فهمّ هؤلاء الباحثين يتركز على البحث عن مقاصد المولى تبارك وتعالى وما يترتب عليه من أثر في مجال التغيرات المبتنية على ما يستنبطه هؤلاء من معاني القرآن بوصفها مقاصد للمولى تعالى أو مقاربات لها .

ومن بين أهم المفسرين الذين اعتمدوا على الوظيفة اللغوية – بوضعها العام وبضمنها الوظيفة النحوية – صاحب تفسير الميزان العلامة السيد محمد حسين الطباطبائي .

فهو بناء على منطلقاته التفسيرية والتي يعد من أهمها حجية الظهور القرآني المعتمدة على اللغة يرى أن الأساس الذي ينطلق منه مفسر القرآن الكريم هو النص ذاته لاخارجه حتى إن كان هذا الخارج رواية موثوقة ، لذا نجده يعرف التفسير بأنه (بيان معاني الآيات القرآنية والكشف عن مقاصدها ومداليلها)[١]

فللتركيب اللغوي والسياق الأثر الكبير في الكشف عن هذه المداليل ، ولذا اهتم السيد الطباطبائي – انطلاقاً من بحثه عن مقاصد النص – بطبيعة التراكيب النحوية واختيار التوجيهات النحوية التي يجدها أكثر انسجاما مع السياق الذي وردت فيه ، وتناسبها مع غايات ومقاصد القرآن الكريم وبعده الإعجازي لذا كان في مقام اختيار تلك التوجيهات مناقشاً ومرجحاً فضلاً عن كونه عارضاً وذاكراً لها بما يراه مناسباً ، فحين يجد أن هناك مناسبة لطرح الآراء النحوية والتوجيهات الإعرابية يعمد إلى ذلك ولا يتردد في مناقشتها إن لم يجد لها مايؤيدها أو ما يبررها ، وقد يصل به الأمر في بعض الأحيان – كما سيتضح في ثنايا البحث – لا إلى رفضها فحسب بل إلى تشنيع القول فيها لعدم انسجامها مع بعد من أبعاد القرآن الكريم كإعجازه أو غير ذلك فوقفت عند رده الآراء النحوية محاولاً اختيار جملة منها دون استقصاء كل الحالات أو الآراء - لبيان المعايير التي انطلق منها صاحب الميزان في مناقشته الآراء وقد أحصيت بعضاً منها لا على التعيين أو الترتيب لأفتح الباب من خلالها لبحث أرحب في هذا الموضوع واتضح لي أن مواقفه من الآراء النحوية تتوزع بين معايير مختلفة لأنه تصدى لآراء النحويين للوصول إلى المعنى الدقيق في النص ومدى مقاربته للقاعدة النحوية لذا فإن صور واحتمالات عدة قد تكون للرأي الواحد في مقام رده أو ترجيحه الآراء النحوية . فيعمد في مقام الرد إلى معيار وفي مقام الترجيح إلى آخر ، وأحياناً يخوض في أكثر من احتمال للوصول إلى الرأي الراجح فيعتمد أكثر من معيار .

معايير نقد الآراء النحوية

اعتمد صاحب الميزان في ثنايا ترجيحه للآراء النحوية أو رده عليها معايير عدة يستند إليها في مواقفه من تلك التوجيهات وقد تباينت تبعا لطبيعة بحثه في كل آية وما قيل فيها من توجيهات نحوية لذا حاولت أن أجمل بعض هذه المعايير فيما يلي :-

١- الاعتماد على الظاهر

من الطبيعي أن تتعدد الآراء النحوية في المسألة الواحدة في القرآن الكريم ، لأن الهدف هو إيجاد مقاربة دلالية بين القاعدة النحوية وما يبحثون عنه من معان لذا فإن صاحب الميزان قد يعتمد الظاهر اساساً لتوجيه الرأي النحوي في بحثه عن المعنى ، مثال ذلك ما نجده في تفسيره قوله تعالى (وَاتَّقُواْ اللّهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ) النساء /١ . ففي توجيهه لمعنى قراءة الفتح (وَالأَرْحَامَ) يرى أنها معطوفة على لفظ الجلالة فيكون المعنى وفق هذا التوجيه وَاتَّقُواْ الأَرْحَامَ أن تقطعوها وهو ماقاله الفراء [٢] والنحاس[٣] في توجيه ذلك المعنى ، وسنجده لاحقاً يتبنى هذا التوجيه بعد أن يعرض عليه اشكالاً ثم يجيب عنه .

أما قراءة حمزة بجر الأرحام[٤] نجد السيد في عرضه الآراء يتفحصها ثم يبدي موقفا صريحاً أحيانا وضمنيا أحيانا أخر مبينا مدى صحتها أو ضعفها أو رفضها . فعند رده على هذه القراءة يبدأ بما يؤيد أن العطف على الضمير وليس على لفظ الجلالة كما يفهم من قول سيبويه إنه معطوف على محل الضمير في قوله (به) وهو النصب ، يقال (مررت بك وزيداً)[٥] يقول وهوما أيدته قراءة حمزة *

وبعد أن يطرح دليلاً على أن العطف على الضمير سواء كان بالنصب أم بالجر يبدأ بمناقشة

آراء النحويين فيها مبيناً طعونه في كل رأي منها ، فقراءة الجر اختلف في قبولها أو رفضها إذ نجد أن الفراء يرفضها وحجته إن فيها قبحاً لان العرب لا ترد مخفوضاً على مخفوض وقد كني عنه[٦] وقد ورد جوازه في الشعر قال الشاعر [٧] :

تعلق في مثل السواري سيوفنا

وما بينها والكعب غوط نفانف

إذا عطف (الكعب) على الضمير المجرور (ها) .

أما أبو حيان الأندلسي فقد قال عنها (أن تأويلها على غير العطف على الضمير مما يخرج الكلام عن الفصاحة فلا يلتفت إلى التأويل)[٨] .

ثم نجد أن صاحب الميزان يبين فساد ذلك المعنى لان تقديره يصبح واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام ، يقول أحدكم لصاحبه أسألك بالله وأسألك بالرحم[٩] . وهو المنقول عن مجاهد أن العرب تقول (أسألك بالله وبالرحم)[١٠] . وفساد ذلك كما في تعقيب السيد على هذا المعنى أن (والأرحام إن جعل صلة مستقلة (للذي) وكان تقدير الكلام واتقوا الله الذي تساءلون والأرحام كان خاليا من الضمير العائد وهو غير جائز)[١١]

فيعمد في رده إلى تطبيق شرط من القاعدة النحوية الخاصة بالاسم الموصول أو يعمد إلى أدب القرآن اساساً في رده القول ، لتنافيه معه يقول : (وإن كان المجموع منه ومما قبله صلة واحدة (للذي) كان فيه تسوية بين الله عز اسمه وبين الأرحام في أمر العظمة والعزة وهي تنافي أدب القرآن)[١٢]

كما أنه في مقام ترجيح الرأي الأول قد يعترض عليه - أي على صاحب الميزان - بما احتج به في رده أن القول فيه تسوية بين الله وبين الأرحام في مقام العظمة فيُحتج عليه بما ورد في القرآن الكريم لذا نجده في مقام دفع دخل مقدر يقول إن (نسبة التقوى إلى الأرحام كنسبتها إليه تعالى فلا ضير فيها بعد انتهاء الأرحام إلى صنعته وخلقه تعالى وقد نسبت التقوى في كلامه تعالى إلى غيره كما في قوله تعالى { وَاتَّقُوا يَوْماً تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ }البقرة٢٨١ ، وقوله { وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ }آل عمران١٣١ ، وهذا يعني وانسجاماً مع ما قرره أن نسبة التقوى إلى غير الله أمر واقع في أدب القرآن الكريم لا على التسوية ، ونلاحظ في ثنايا رده الآراء استعمال أدوات التقليل مثل (ربما ، قيل) هذا فضلاً عن تجلي الأثر العقائدي في عملية التقييم كما تقدم .

عدم الانسجام مع التركيب القرآني :

ومن المعايير التي اعتمدها السيد الطباطبائي في رفضه أو تقييمه الآراء هو عدم انسجامها مع طبيعة القرآن الكريم وأسلوبه التركيبي ففي قوله تعالى { قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتَامَى النِّسَاءِ }النساء١٢٧ .

فموضع (ما يتلى) ذكر فيه النحاة والمفسرون احتمالات عدة[١٤] استعرض صاحب الميزان معظمها قال إن قوله (وَمَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ ، معطوف على موضع اسم الجلالة في قوله : قل الله أو على الضمير المستر في قوله " (يُفْتِيكُمْ) وقول بعضهم إنها معطوفة على النساء في قوله "النساء" وقول بعضهم إن الواو في (وَمَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ) للاستئناف والجملة مستأنفة (وَمَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ) مبتدأ خبره (فِي الْكِتَابِ) والكلام مسوق للتعظيم[١٥] .

وقول بعضهم إن الواو في قوله (وَمَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ) للقسم ويكون قوله في يتامى بدلاً من قوله (فِيهِنَّ)[١٦] (والمعنى قل اللَّهُ يُفْتِيكُمْ - اقسم بما يتلى عليكم في الكتاب الخ)[١٧]

فبعد استعراضه لهذه الآراء ذهب إلى أنها آراء محكومة بالتعسف وأنها تنافي التركيب القرآني الخالي من التعقيد فيرى أنها تراكيب لا تخلو من تعسف ولا يرتكب في كلام الله تعالى مثلها ولا يخفى ما في جميعها من تعسف ظاهر[١٨] .

ويشير بتلميح إلى قبوله رأي الفراء في انه معطوف على الضمير المجرور في (فيهن)[١٩] ؛ لان القول متعرض له لاتصاله بحكم النساء كما جاء في آيات صدر السورة [٢٠] .

ولأنه قدس سره الشريف يهتم بالمعنى فقد يعترض على رأي بعضهم لان المعنى لا يناسب التركيب القرآني أي أن فيه بعداً عن أساليب العرب ففي قوله تعالى {وَاتَّقُوا فِتْنَةً لاَّ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَآصَّةً }الأنفال٢٥ قال في (لاَّ تُصِيبَنَّ) (وربما قال بعضهم أن لا زائدة والمعنى اتقوا فتنة تصيبن)[٢١] وهو ما ذكره الرازي [٢٢] ، وأبو حيان [٢٣] ثم قال : وربما ذكر آخرون أن أصل (لاَّ تُصِيبَنَّ) لتصيبنّ أشبعت فتحة اللام حتى تولدت الألف وإشباع الفتحة ليس بعزيز في العربية جاء في الشعر .

فأنت من الغوائل حين ترمي

ومن ذم الرجال بمنتزاح *

ويرى أن هذا القول تؤيده قراءه ابن مسعود (لتصيبنّ)[٢٤] وتأويلها أنها جواب لقسم محذوف فدخلت النون في محلها ومطلت اللام فصارت (لا)[٢٥].

ويرى صاحب الميزان أن الوجهين(بعيدان لا يحمل على مثلهما كلامه تعالى)[٢٦] ويبدو أنه يرجح قراءة (لتصيبن) وهي قراءة ابن مسعود (رض) والمنقولة عن الإمام علي والباقر عليهما السلام من أئمة آهل البيت (ع)[٢٧] وهي تلتقي مع (لاتصيبن) حسب التوجيه النحوي الذي خرجت عليه إذ يرى أن معنى القراءتين (لاتصيبن) ولتصيبن) يصبح واحداً إذا ما خرجت (لا) على أنها لام مفتوحة مطلت فتحتها فصارت ألفاً [٢٨].

عدم استقامة الرأي مع مقصد الآية

قد يضعف السيد (قدس سره الشريف) الرأي تأسيساً على كونه لا يستقيم ودلالة الآية القرآنية فالرأي النحوي السائد في قوله تعالى {وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلا أَن رَّأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ }يوسف٢٤

فالرأي النحوي السائد أن جواب " لولا " لا يتقدم عليها قياساً على إن الشرطية قال النسفي (جواب

لـولا لا يتقـدم عليهـا لأنـه فـي حكـم القـسم ولـه صـدر الكـلام)[٢٩] وعليـه يكـون قولـه تعـالى (وهـم بهـا) جملـة تامـة غير متعلقـة بالشرط وجـواب لـولا مقدر نحـو لهم بها أو ما شابه ذلك[٣٠]

فالتوجيـه النحـوي الـذي يـرد عليـه السـيد مفـاده أن امـرأة العزيـز همـت بيوسـف (ع) وهـم بهـا إلا أنـه رأى برهـان ربـه فلـم يقـع منـه الفعـل [٣١] وهـذا مـا ذهـب إليـه الزجـاج إذ قـال (ولاشـك أنـه رأى برهانـاً قطعـه عمـا هـم بـه)[٣٢] فـالهم علـى هـذا المعنـى واقـع منـه وإن لـم يقـع الفعـل لـذلك أول الهـم تـأويلات كثيـرة منهـا انـه دفعهـا أو مـا شـابه ذلـك واختلفـوا فـي تحديـده ، إلا أن السـيد الطباطبـائي فـسرّ هـذا القـول وخرجـه تخريجـاً نحويـاً ناتجـه نفـي الهـم عـن يوسـف (عليـه السـلام) لان (لـولا) كمـا يـرى صـاحب الميـزان وان كانـت ملحقـة بـأدوات الـشرط قـد منـع تقـديم جوابهـا عليهـا حمـلا علـى (إن) الـشرطية ، إلا أن قولـه تعـالى (وهـم بهـا) لـيس جـزاءً لهـا بـل هـو مقسم عليـه بـالعطف علـى قولـه (ولقـد همـت بـه) وهـو فـي معنـى الجـزاء اسـتغني بـه عـن ذكـر الجـزاء كقولنـا والله لا ضـربنه إن يـضربني والمعنـى والله إن يـضربني اضـربه ومعنـى الآيـة والله لقـد همـت بـه والله لـولا أن رأى برهـان ربـه لهـم بهـا [٣٣] فهـو لا يـذهب فـي القاعـدة النحويـة كمـا ذهـب السـيد المرتـضى إذ قـال فـي رده علـى الزجـاج (قلنـا أمـا تقـدم جـواب لولا فجائز)[٣٤]

وقـال أيضاً (ولـيس تقـديم جـواب لـولا بابعـد مـن حذفـه جملـة)[٣٥] بـل فـتح بابـاً آخـر – أي صـاحب الميـزان - فـي القاعـدة النحويـة وهـو أنـه إذا اجتمـع شـرط وقـسم فـالجواب للمتقـدم ودليلـه أن الآيـة مـسوقه للقـسم هـو وجود (لقد)[٣٦]

والمتأمـل فيمـا ذهـب إليـه صـاحب الميـزان يكـشف انـه وان لـم ينكـر التوجيـه النحـوي فـي منـع تقـديم جـزاء لـولا عليهـا فانـه يكـشف عـن صـورة بتوجيـه آخـر يـندرج ضـمن القاعـدة النحويـة ويختلـف عمـا ذهـب إليـه الآخرون .

وعليـه فـان أسـاس رفـض مـذهب النحـاة رفـض علـى أسـاس عـدم اسـتقامة المعنـى المـؤدي إليـه وانـه يمـس ساحة الأنبياء .

رده الرأي لوجود دليل قرآني

قـد يـرفض الـرأي أو يـضعفه لوجـود دليـل عليـه فـي القـرآن الكـريم أو فـي القـراءة القرآنيـة ففـي قولـه تعـالى {أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاء مَّحْيَاهُم وَمَمَاتُهُمْ سَاء مَا يَحْكُمُونَ }الجاثية ٢١

ذكـر ابـن عطيـة وأبـو حيـان أن مـذهب المبـرد هـو أن (أن ومـا بعـدها) تـسد مـسد المفعـول الأول أمـا المفعـول الثـاني فمحـذوف [٣٧] ويبـدوا أن رد السـيد الطباطبـائي هنا موجه إلى رأي المبرد دون أن يذكره صراحة إذ

يـرى الطباطبـائي – إن إمكـان قيـام (أن وصـلتها) مقـام مفعـولي حسب كثيـر فـي القـرآن الكـريم وهـذا يغنـي عـن تقـدير مفعـول ثـان ومـا منعـه بعـض النحـاة مـردود لوجود دليل عليه في آيات القرآن الكريم أو في بعض القـراءات القرآنيـة للآيـة السـابقة الـذكر إذ يـرى أن قـراءة الإمـام علـي عليـه السـلام (حسْب) سـكون السـين دليل على ذلك [٣٨] .

ومـا ذهـب إليـه صـاحب الميـزان جـائز عنـد اغلـب النحاة وقد نقل جوازه عن سيبويه [٣٩]

الرد باعتماد النقل عمن يوثق بفصاحتهم

فـي رده (رحمـه الله) اعتمـد النـصوص الموثـوق بفـصاحتها نثـراً أو شـعراً فقـد جعـل مـاورد عـن الإمـام علـي عليـه السـلام دليـلاً علـى رأيـه ففـي قولـه تعـالى { فَـاتَّقُوا اللَّـهَ وَأَصْـلِحُوا ذَاتَ بَيْـنِكُمْ وَأَطِيعُـوا اللَّـهَ وَرَسُـولَهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ }الأنفال١ ذهـب الراغـب إلـى أن (ذو) علـى وجهـين احـدهما يتوصـل بـه إلـى الوصـف بأسـماء الأجنـاس والأنـواع ويـضاف إلـى الظـاهر دون الـضمير ولا يـستعمل شـيء منـه إلا مـضافاً ، أمـا أصـحاب المعـاني فجعلوهـا عبـارة عـن الـشيء جـوهراً واسـتعملوها مفـردة ومـضافة إلـى الـضمير فقـالوا ذاتـه ونفسه وليس ذلك من كلام العرب . [٤٠]

فقولـه لـيس ذلـك مـن كـلام العـرب هـو موضـع رد السـيد رحمـه الله فـذهب إلـى أن مـا ذكـره مـن عـدم إضـافته إلـى الـضمير نقـل خلافـه عـن الفـراء قـال : (والحـق انـه قليـل لا متـروك وقـع فـي كـلام علـي ع فـي بعض خطبه)[٤١]

ويفهـم مـن كـلام الطباطبـائي أن لازم قـول الراغـب انـه لـيس مـن كـلام العـرب يقـصد – الراغـب – انـه مـن كـلام المولـدين والاّ فكيـف للفـراء أن ينقـل كلامـاً لـيس عربياً .

وفيمـا مـر إشـارة إلـى أن منهجيـة السـيد الطباطبـائي فـي التعامـل مـع صـوابية الاسـتعمال يمكـن الرجـوع فيـه إلى كلام ممن يوثق بعربيته نثراً أو شعراً .

عدم انسجام التوجيه النحوي مع السياق

قـد يـرجح السـيد الطباطبـائي قـراءة مـن القـراءات مـع رجحـان أخـرى ، وترجيحـه لهـذه القـراءة غيـر مـستند إلـى التوجيـه النحـوي الـذي يـرد فـي ثنايـا كـلام النحـاة أو المفـسرين ، إذ يجـد أن فـي تـوجيههم مـا يكـون غيـر منـسجم مـع السـياق فيجتهـد فـي طـرح توجيـه يمكـن أن يكـون إلـى حـد بعيـد مقبـولاً بعـد تـضمينه توجيهـا آخـر ، وهـذا مـا طرحـه السـيد رحمـه الله فـي قـراءة يراهـا أكثـر خفـاءً مـن القـراءة الأخـرى فـي بنائهـا النحـوي ، ففـي قولـه تعـالى {وَأَنَّـهُ تَعَـالَى جَـدُّ رَبِّنَـا مَـا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَـا وَلَـداً }الجن٣ ، ف(أنـه) قـرئ بالكسر مـع أن القـراءة المـشهورة هـي الفـتح[٤٢] فـا مـا قـراءة الكـسر – كمـا يـرى – فوجههـا ظـاهر بنـاء علـى أن الكـلام مقـول قـول الجـن ، فكـسرت همـزة (إن) لأنهـا يجـب كـسرها إذا وقعـت بعـد القـول [٤٣] وقـد اختارهـا الـسمعاني قـال : (فمـن قرأهـا بالكـسر فهـو أن الجـن قالوا .... والقراءة بالكسر أحسن القراءتين)[٤٤]

وأمـا قـراءة الفـتح وهـي المـشهورة – كمـا يراهـا أيضاً - فوجههـا لا يخلـو مـن خفـاء فـذهب إلـى أن قـراءة الكسر في هذه الآية وما بعدها من الآيات هي الأرجح لظهور سياق الآيات في أنها مقوله قول الجن [٤٥] ثم اخذ يذكر التوجيهات النحوية المحتملة في قراءة

الفتح فمن بين هذه التوجيهات مارده مطلقاً وهو التوجيه الذي يذهب إلى أن قوله تعالى (وانه تعالى جد ربنا) وسائر الآيات المصدرة ب(ان) التي في سياقها معطوفة على قوله (أنه استمع) ، فقد فسد هذا المعنى وعلل ذلك بأن محصله أن الآيات في مقام الإخبار عما أوحى الله تعالى لنبيه من أقوالهم ولازمه تكون (أن) في الآيات زائدة مخلة بالكلام . لذا وجه قراءة الفتح توجيها آخر يمكن قبولها بعد إيراد توجيه آخر عليها أي لا تقبل على علاتها بل تقبل مع شيء من التأويل ، وهو أن الجملة معطوفة على الضمير المجرور فيكون المعنى (آمنا به وبأنه) وهذا إنما يكون مقبولاً على مذهب الكوفيين [٤٦] فهو يرى أن هذا الوجه أكثر مقبولية في هذه الآية إلا أنه لا يناسب سياقها مع الآيات الأخر اذ يرد عليها أنها تستقيم في قوله تعالى (انه جد ربنا) وقوله تعالى ((وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطاً }الجن ٤ - الآية التي بعدها – ولاتستقيم في الآيات التي تليها إذ يرى أن المعنى إنما يستقيم حينئذ في قوله (أنه تعالى جد ربنا) وأنه (يقول سفيهنا) الخ . أما بقية الآيات المصدرة ب(أن)}وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّن تَقُولَ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِباً}الجن٥ فلا يصح قطعا فلا معنى لأن يقال آمنا أو صدقنا إنا ظننا[٤٧].

ثم بعد إيراد هذه الإشكالات والطعن فيها أو تعديلها يحاول أن يوجه قراءة الفتح بتأويل معين وهو أن الإشكال لا يندفع إلا بالمصير إلى أنه إذا وجه الفتح في الاثنين بتقدير الإيمان والتصديق فليوجه في الآيات الباقية بما يناسبها من التقدير .[٤٨]

عدم استقامة ناتج المعنى مع مقاصد القرآن

من معايير الرفض التي اعتمدها السيد الطباطبائي في رده بعض التوجيهات النحوية هو أن ناتج المعنى لا يستقيم مع قصد القرآن الكريم وعظمته ، ومن بين التوجيهات التي ناقشها في الميزان هو ما ذهب إليه الزجاج في قوله تعالى {وَإِن مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلاَّ لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً }النساء١٥٩

إذ يرى الزجاج أن الضمير في (به) يعود إلى الكتابي وان معنى ذلك أنهم جميعا يقولون إن عيسى الذي يظهر في آخر الزمان نحن نؤمن به – أي أهل الكتاب الذين في زمان نزوله [٤٩] .

فيرد السيد الطباطبائي هذا التوجيه ويرى أن هذا المعنى سخيف يقول (وهذا المعنى سخيف فإن الآيات مسوقه لبيان قتل عيسى عليه السلام وصلبه والرد عليهم دون كفرهم به ولا يرتبط ذلك باعترافهم بظهور مسيح في آخر الزمان يحيى أمر شعب بني إسرائيل حتى يذيل الكلام به)[٥٠] . ثم يضيف قائلاً (على أنه لو كان المراد به ذلك لم يكن حاجة إلى ذكر قوله (قبل موته) لارتفاع الحاجة بدونه ، وكذلك قوله تعالى (وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً) لأنه على هذا التقدير فضل من الكلام لا حاجة إليه)[٥١] .

ويبدو أن ميل السيد الطباطبائي إلى عود الضمير إلى الكتابي إلا أن المعنى أن الكتابي يؤمن بموسى عليه السلام قبل موته – أي موت الكتابي – فلا ينفعه ذلك وهو ما قاله الطبرسي [٥٢].

ويستعرض السيد الطباطبائي احياناً الآراء النحوية فيوجه بعضها ويرد بعضها الآخر ويصفه بالسخف كما مر في مواضع عدة ومن هذا القبيل ما ذكره في الآراء النحوية الواردة في تفسير قوله تعالى {وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلآئِكَةِ اسْجُدُواْ لآدَمَ فَسَجَدُواْ إِلاَّ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ }الأعراف١١ فيبدأ بذكر قول الاخفش واعتراض الزجاج عليه وبعده يبدأ بالرد ، فقد ذهب الاخفش إلى أن (ثم) ها هنا بمعنى الواو [٥٣] وقد خطأه الزجاج لان الخليل وسيبويه وجميع من يوثق بعلمهم لا يجوزونه والمعنى في هذا الخطاب ذكر ابتداء الخلق أولاً ، فالمراد إنا بدأنا خلق آدم ثم صورناه فابتدأ خلق آدم من التراب والمراد ب(خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلآئِكَةِ) بعد الفراغ من خلق آدم ، ومن كلام العرب فعلنا بكم كذا وكذا وهم يريدون أسلافهم[٥٤] .

ويشير أيضاً إلى توجيه آخر لهذا المعنى فقد ذهب الزركشي إلى أنها لترتيب الأخبار فكأنه قال خلقناكم ثم صورناكم ثم أنا نخبركم إنا قلنا للملائكة [٥٥] بدأ الطباطبائي رحمه الله بمناقشة قول الزجاج فقد رأى أن هذا القول ليس تاما وفيه أن الكلام وإن كان موجهاً للمعاصرين إلا أن المقصود به الأسلاف بدلالة (ثم) التي تدل على التباعد الزمني . ورأى أن ذلك يصح عندما يشترك الطرفان بنوع من الاشتراك لا بمجرد علاقة النسب والسبق واللحوق حتى يصح نسبة ما للأولين للآخرين . فبعد توجيهه لهذا المعنى شنع الأقوال الأخرى بل وصفها بالسخف – كعادته – لان هذه الأقوال التي شنع القول فيها غير مفهومة من معنى الآية – كما يرى رحمه الله)[٥٦]

وزاد على ذلك أن هذه الأقوال لا يرتضيها القائل أن يؤول كلامه بها فكيف يرتضيها بتأويل كلام الخالق قال (ولعل القائلين بها لا يرضون أن يتأول في كلامهم أنفسهم بمثل هذه الوجوه فكيف يحمل على مثلها ابلغ الكلام)[٥٧]

والملاحظ أن السيد الطباطبائي بناء على رؤيته بإعجاز القرآن رفض هذه الأقوال لان ابلغ الكلام لا ينسجم وناتج المعنى لبعض التأويلات النحوية .

أما موقفه فيمكن أن نهتدي إليه من توجيهاته من أن (ثم) هنا في دلالتها على الترتيب لان آدم كان مثالاً تمثل به الإنسانية نائباً مناب أفراد البشر[٥٨] وهذا المعنى يمكن حمله على ما ذهب إليه ابن هشام أنها على تقدير حذف مضاف أي خلقنا أباكم ثم صورنا أباءكم [٥٩]

تقييم الباحث

انطلاقاً من مبدأ أن القرآن جاء على أساليب العرب في حواراتهم وخطاباتهم ومع ذلك كانت له طريقة خاصة في التعبير أبهرتهم بإعجازها ، نتج عن هذا المبدأ أن ظهور القرآن حجة وعليه فان الوصول إلى هذا الظهور متوقف على معرفة الدلالات الكامنة في البنى النحوية ، وبعبارة أخرى إن النحو رافد من

روافد هذا الظهور يستند إليه الباحث في التفسير ليكشف من خلاله معنى النص ، ولاسيما إن السيد الطباطبائي في تعريفه للتفسير – كما تقدم – بين أن الهدف هو البحث عن دلالة الآية فالنحو واللغة وغيرها من الأساليب في البحث التفسيري لا تطلب لذاتها بل بوصفها دوال على المعنى .

وعليه فان اعتمادها سيكون محكوماً بمقدار ما يستقيم منها مع عناصر أخرى رافدة للدلالة ، فان تعارضت تلك الدوال فلابد من وضع معيار على ضوئه تترجح دلالة عناصر معينة على غيرها ، وبعبارة ثانية إن النحو بوصفه دالاً على المعنى لا يتجاوز كون هذه الدلالة لها أكثر من إمكانية يمكن أن تترجح من خلالها مع وجود عناصر دالة أخرى أو يتغير التأويل النحوي لانسجامه مع دوال أكثر قوة منه .

ولهذا وجدنا السيد الطباطبائي – ولأنه باحثاً عن المعنى في الدرجة الأساس قد يحاكم بعض التوجيهات النحوية مستنداً على معايير أخرى غير الإمكان النحوي إذ ليس كل ماهو ممكن نحوياً يمكن أن يكون مقبولاً قرآنياً ، فمجرد احتمال الوجه غير كافٍ بحد ذاته مالم يكن هذا الوجه ظاهر المعنى .

وقد وقف الباحث عند مجموعة من المرتكزات التي حاكم على ضوئها السيد الطباطبائي الآراء النحوية وكان من بينها :-

١- انسجام ذلك الرأي مع المضمون الكلي للقرآن وأهدافه ومبادئه الكلية ، أو قد لاينسجم ذلك التوجيه النحوي مع الأهداف الجزئية في السورة أو في الآية أو يجد أن ذلك الرأي لايؤيده سياق الآية أو أن الرأي لاينسجم مع كون القرآن معجزاً أو أن هناك آراء مختلفة يجد السيد لها شواهد في كلام من يوثق بعربيته .

٢- ويمكن القول إن البحث في آراء النحاة ليس حالة مطردة في بحثه التفسيري وإنما يلجا إليها حين يجد ما يستدعي ذلك كاختلاف معنى نتيجة لاحتمال تعدد التأويل النحوي في المسالة ، ويناقش الآراء ليخلص إلى اختيار يراه أكثر انسجاماً ، وانه قد يقبل أكثر من توجيه نحوي لكونها لاتختلف من حيث ناتج المعنى .

٣- و انه في بعض الأحيان قد يشنع القول في بعض الآراء لأنها غير منسجمة مع القرآن جملة وتفصيلا .

٤- وفي كثير من الأحيان لايذكر أصحاب الآراء التي تمتاز بلون من الاستخفاف من قبله وهذا مبدأ عام للمتتبع في تفسيره ، إذ يجد المتتبع أن صاحب

٥- الميزان في محاكمة الآراء إذا كان لا يتفق مع صاحب ذلك الرأي وكان رأيه من السخف بمنزلة – كما يرى – فانه لايذكر اسم صاحب ذلك الرأي ، لأنه ليس في معرض نقد صاحب الرأي بل في معرض نقد الرأي ذاته وهذا ينطبق على الآراء النحوية إذ يقول (وقيل) ولايذكر القائل .

٦- إن طريقة استعراض الآراء النحوية هي طريقة التأليف القديمة التي يمكن أن يعبر عنها

٧- بالتمثيل المعرفي ، أي أن صاحب الميزان في استعراضه الآراء لايذكر المصدر والجزء ومكانه ، وإنما يرسل الآراء من ذاكرته ارسالاً كما هو عند المفسرين القدماء ، فكأنما هذا الرأي حاضر في ذهنه وهذا يدل على سعة معرفته وحضورها ذهنياً اثناء تفسيره لكونه قد تمثلها معرفياً فصارت جزءاً من ثقافته وتفكيره .

٨- استعان السيد بالقراءات القرآنية بعدها عنصراً مساعداً في ترجيح رأي أو لاحتمالها رأي آخر .

٩- نجده لايلتزم برأي مدرسة نحوية معينة وإنما يكون موافقاً لتلك المذاهب مع العناصر الدالة الأخرى في السياق التي تؤيد المعنى الذي ينسجم وقول القرآن .

١٠- واحياناً نراه إما مستخلصاً لرأي أو يكون له رأي خاص به لوجود أدلة يراها مقبولة عنده كاستشهاده بقول الإمام علي (عليه السلام) .

الهوامش :

١- الميزان ٤/١

٢- ينظر معاني القرآن ٢٥٢/١، وينظر الميزان ١٣٧/٤

٣- ينظر إعراب القرآن ٢٦٦/١.

٤- ينظر الجامع لأحكام القرآن ٣/٥ ، والبحر المحيط ٣٣٦/١

٥- ينظر الكتاب ٢٨٢/٢ ، وينظر الميزان ١٣٧/٤

• أي أن قراءة حمزة بجر (الأرحام) دليل على أن العطف على الضمير وليس على لفظ الجلالة .

٦- ينظر معاني القرآن ٢٥٢/١

٧- جاءت نسبته في (الحيوان) إلى مسكين الدارمي ينظر الحيوان ٤٩٣/٦

٨- البحر المحيط ٣٣٦/٢

٩- ينظر الميزان ١٣٧/٤

١٠-ينظر الدر المنثور ٣٠/٣ .

١١-الميزان ١٣٧/٤ وينظر شرح الرضي على الكافية ٢٤/٣ في موضوع عود الضمير على الاسم الموصول

١٢-الميزان ١٣٧/٤

١٣-المصدر نفسه

١٤-ينظر مشكل إعراب القرآن الكريم ٢٠٩/١

١٥-، وإملاء مامن به الرحمن ١٣٩/١ ، وتفسير البيضاوي ١٠/٢

١٦-ينظر التفسير الكبير . ٣٩٨/٥

١٧-ينظر إملاء ما من به الرحمن ١٩٦/١

١٨-الميزان ٩٩/٥

١٩-ينظر المصدر نفسه

٢٠-ينظر معاني القرآن ٢٥٢/١

٢١-ينظر الميزان ٩٩/٥

٢٢-م.ن : ٥٢/٩

٢٣-ينظر التفسير الكبير ٣٩١/٧

٢٤-ينظر البحر المحيط ٦٠/٦
• البيت لابراهيم بن علي بن محمد ينظر جامع الشواهد ج٢ / ١٤٠ .
٢٥- ينظر المصدر نفسه
٢٦-ينظر تفسير البيضاوي ٣٨١/٢ ، البحر المحيط ٦٠/٦
٢٧-الميزان ٥٢/٩
٢٨-م.ن : ٥٠/٩
٢٩-م.ن : ٥٢/٩
٣٠-تفسير النسفي ١٨٤/١٢ ، وينظر التسهيل لعلوم التنزيل ١١٧/٢
٣١-ينظر تفسير البغوي ٤٢١/٢
٣٢-ينظر الميزان ١٣٤/١١
٣٣-معاني القرآن وإعرابه ٨٢/٣ وذكر هذا الرأي المجلسي في بحار الأنوار ٢٠/ ٣٣٠ عند رده على الزجاج .
٣٤-ينظر الميزان ١٣٨/١١
٣٥-آمالي الشريف المرتضى ١٢٦/٢
٣٦-تنزيه الأنبياء ٨٠
٣٧-ينظر شرح ابن عقيل ٣٨١/٢ ، وشرح الرضي على الكافية ٤٥٥/٤
٣٨-ينظر المحرر الوجيز ١٤/٣ ، والبحر المحيط ٥٤٢/٣
٣٩-ينظر الميزان ٣٦٨/٣
٤٠-ينظر البحر المحيط ٥٤٢/٣
٤١-ينظر مفردات ألفاظ القرآن ٣٣٣
٤٢-الميزان ٦/٩ وينظر نهج البلاغة الخطبة ١٨٤
٤٣-قراءة عاصم ونافع في رواية أبي بكر ينظر البيان في تفسير القرآن ٤٤/١٠ ، وينظر تفسير السمعاني ٦٤/٦
٤٤-ينظر شرح ابن عقيل ٣٥٠/١
٤٥-تفسير السمعاني ٦٤/٦
٤٦-ينظر الميزان ٤٠/٢٠
٤٧-ينظر البحر المحيط ٣٣٦/٢ ـ ٣٣٧ ، وينظر الميزان ٤٠/٢٠
٤٨-ينظر الميزان ٤١/٢٠
٤٩-ينظر المصدر نفسه
٥٠-ينظر إعراب القرآن ومعانيه ١٥٩/١
٥١-الميزان ١٢٦/٥
٥٢-المصدر نفسه
٥٣-ينظر جامع الجوامع ٤٦٠/١ ، وينظر الميزان ٥/ ١٢٦
٥٤-ينظر معاني القرآن ٣٢١/١
٥٥-ينظر معاني القرآن وإعرابه ٢٦٠/٢ ، وينظر تفسير البيضاوي ٢٤٢/٢
٥٦-ينظر البرهان ٢٦٨/٤ ، وينظر الميزان ٢٠/٨
٥٧-ينظر الميزان ٢٢/٨
٥٨-المصدر نفسه
المصدر نفسه (أي أنها للمهملة الرتبيه وليس الزمانية)
٥٩-ينظر مغني ألبيب ٦٨٩/٢

المصادر

• القرآن الكريم .
• الأصول في النحو لأبي بكر السراج ، تحقيق د . عبد الحسين الفتلي ، مطبعة النعمان ، النجف الاشرف ١٩٧٣م.
• أمالي الشريف المرتضى ، غرر الفوائد ودرر القلائد للشريف المرتضى علي بن الحسين الموسوي ، تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم ط١ ١٣٨٤هـ .
• إعراب القرآن لأبي جعفر النحاس تحقيق د. محمد احمد قاسم دار الهلال ط١ ٢٠٠٤م
• إملاء مامن به الرحمن من وجوه الإعراب والقراءات في جميع القرآن لأبي البقاء عبد الله بن الحسين العكبري دار الكتب العلمية بيروت ١٣٩٩ هـ ١٩٧٩ م .
• بحار الأنوار للعلامة محمد باقر المجلسي ، مؤسسة الوفاء بيروت ط٢ ١٤٠٣ هـ ١٩٨٣ م .
• البحر المحيط لأبي عبد الله محمد بن يوسف بن حيان الأندلسي ، تحقيق عادل احمد عبد الموجود دار الكتب العلمية بيروت ط١ ٢٠٠١ م
• البرهان في علوم القرآن للإمام بدر الدين الزركشي ، تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم ط١ ١٣٧٦ هـ - ١٩٥٧م.
• التبيان في تفسير القرآن لأبي جعفر الطوسي ، تحقيق احمد حبيب العاملي دار إحياء التراث العربي بيروت ١٤٠٩ هـ .
• التسهيل لعلوم التنزيل لأبي عبد الله محمد بن احمد الغرناطي ، دار الكتاب العربي لبنان ط٤ ١٣٠٣هـ - ١٩٩٣ م .
• تفسير البغوي المسمى معالم التنزيل في التفسير والتأويل ، ابو محمد الحسين الفراء البغوي ، دار الفكر ١٤٠٥ هـ .
• تفسير البيضاوي المسمى أنوار التنزيل وأسرار التأويل لناصر الدين سعيد بن عمر الشيرازي مطبعة مصطفى محمد ، القاهرة د.ت .
• تفسير السمعاني الإمام أبو المظفر منصور بن محمد السمعاني ، تحقيق ياسر إبراهيم وغنيم عباس دار الوطن الرياض ط١ ١٩٩٧ م.
• الجامع لأحكام القرآن لأبي عبد الله محمد بن احمد القرطبي ، تحقيق مصطفى سالم البدري ، دار إحياء التراث العربي بيروت ط١ ٢٠٠٠ م .
• التفسير الكبير للإمام الفخر الرازي ، دار الكتب بيروت ط٢ د. ت .
• تفسير النسفي للعلامة أبي البركات عبد الله بن احمد بن محمود ألنسفي ، دار الكتاب العربي د.ت .
•
•

• تنزيه الأنبياء لأبي القاسم علي بن الحسين الموسوي الشريف المرتضى ، دار الأضواء ط٢ ١٤٠٩ هـ - ١٩٨٩ م .

• جامع البيان عن تأويل القرآن ، لمحمد بن جرير الطبري توثيق صدقي جميل العطار ، دار الفكر بيروت ١٤١٥ هـ - ١٩٩٥ م .

• جامع الجوامع للشيخ أبي علي الفضل بن يحيى الطبرسي ، مؤسسة النشر الإسلامي ١٤٢٨ هـ .

• الحيوان لأبي عثمان عمر بن بحر الجاحظ ، مكتبة البابي الحلبي مصر ط١ ١٣٥٦ هـ - ١٩٣٨ م .

• الدر المنثور في التفسير بالمأثور لجلال الدين السيوطي ، دار الطباعة والنشر بيروت د.ت .

• شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ، المطبعة التجارية مصر ط٢ د.ت .

• شرح الكافية لرضي الدين الاستراباذي تصحيح يوسف حسن عمر ، منشورات جامعة قاريونس ١٣٩٨ هـ - ١٩٧٨ م.

• فتح القدير لمحمد بن علي بن محمد الشوكاني ، عالم الكتب بيروت د.ت .

• الكتاب لسيبويه (ابو عثمان عمرو بن قنبر) تحقيق عبد السلام محمد هارون ، عالم الكتب بيروت ط٣ ١٩٨٠ م

• معاني القرآن لأبي الحسن سعيد بن مسعدة الاخفش الأوسط ، تحقيق د .هدى محمد قراعة ، مكتبة الخانجي القاهرة ١٩٩٠ م

• معاني القرآن لأبي زكريا يحيى بن زياد الفراء ، تحقيق احمد يوسف ومحمد علي النجار ، دار السرور د.ت .

• معاني القرآن وأعربه لأبي إسحاق إبراهيم بن السري الزجاج تحقيق د. عبد الجليل عبده شلبي دار الحديث القاهرة ١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٤ م .

• مشكل إعراب القرآن لمكي بن طالب القيسي تحقيق د.محمد قاسم الضامي ،بغداد ١٩٧٥ م .

• مغني اللبيب لابن هشام الأنصاري ، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ، إيران ١٤٠٤ هـ .

• مفردات اللفاظ القرآن للعلامة الراغب الأصفهاني ، تحقيق صفوان رضوان داوودي ، دار العلم دمشق ط١ ٢٠٠٠ م .

• الميزان في تفسير القرآن للعلامة السيد محمد حسين الطباطبائي ، منشورات جماعة المدرسين في الحوزة العلمية – قم المقدسة د.ت.

Abstruct

The syntactic structure has asignificant function that constitutes a major element of both text analysis and components of this paper. Any syntactic alteration results in alteration in levels of understanding the text and generating meanings .

This phenomen on was tackled and studied by many researchers for along time . Saint Tabtabaei was a mong those researchers in that a spect . One of most important explanatory features is reasoning of appearance.

The Paper , however, deals with aspedt of syntactic criticim for saint . Tabtabaei and his view to text unity as well as understanding the text in light of its relations , among are syntactic relations.

St.Tabtabaei was interested in the opinion but not its holder . In light of the opinion discussion is carried out .

This paper comes to many conclusions, showing method way of thinging of ALMizan writer in this field.